فالرسولُ هنا محمد ﷺ؛ لأنهما بلَّغا.

وهلِ الكلام يُنسب إلى المبلِّغ أو المبلَّغ عنه؟

والجواب: يُنسب إلى المبلَّغ عنه ابتداءً، وإلى المبلِّغ تبليغًا، ولهذا نسبه اللهُ إلى جبريلَ وإلى محمدٍ عليهما الصلاة والسلام، لكنَّ الحقيقةَ أن الكلامَ يُنسَب إلى مَن قاله مبتدئًا، لا إلى من قَاله مُبلِّغًا مُؤدِّيًا.

وقوله: «**وخاتم أنبيائه**» ولم يقل: وخاتم رُسُله؛ لأنك إذا نفيت النبيَّ نفيتَ الرسولَ من باب أولى، لكن لو نفيتَ الرسولَ فإنه لا ينتفي النبيُّ، وما أبلغَ الكتابَ العزيزَ حيث قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ولم يقل: «رسول الله وخاتم المرسلين»، بل قال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنه لا يُمْكِن لأحدٍ أن يُنبَّأَ بعد الرسول ﷺ، لا برسالةٍ ولا بغيرِها، وهذا المعنى قد أجمع عليه المسلمون.

وهذا القرآنُ -ولله الحمدُ- محفوظٌ في الصدور، مكتوب في السطور، منقولٌ بالتواتر القطعيِّ اليقينيِّ، ولم يشِذَّ إلا الرافضةُ، حيث ادَّعوا أن القرآنَ فيه نقصٌ، وأنه حُذِف منه أشياء، وزادوا على ما في القرآن الموجود لدى المسلمين، والذي أجمع عليه المسلمون.

أول القرآنِ الفاتحةُ، كتابةً وتلاوةً -أما نزولًا فأوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]-، وآخره ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فما بين هاتين السورتين كلُّه كلام الله -عز وجل- حتى قال العلماء: وهذا القرآن -ولله الحمد والمنَّة- محفوظ في الصدور، مكتوب في السطور، منقول بالتواتر القطعيِّ اليقينيِّ،

ومَن أنكر مِنه حرفًا واحدًا مُجْمَعًا فيه بين القراء فإنه يكون كافرًا؛ لأنه مكذِّبٌ لله ولرسوله ولإجماع المسلمين، اللهم إلا ما اختلفت فيه القراءاتُ؛ لأن بعض القراءاتِ قد يكون فيها حذفُ حرفٍ معنويٍّ، لا حرفٍ تركيبيٍّ، فالحرف التركيبي كثير مثل: (مَلِك ومَالِك)، حذفت من القراءة الأولى الألف، لكن هناك حرفٌ معنويٌّ قد يُحذف كالواو، وقد يكون بدلُ «**الواو**» فاءً حسب القراءات، لكن هذا قليلٌ.

المهم أن القرآنَ شرعًا هو الذي بين أيدينا، والحمدُ لله، فقد حفِظَه الله -عز وجل- من التغيير والتبديل والنقص والزيادة والتحريف، حتى الذين حرَّفُوه معنىً أقام اللهُ مِن عبادِه الصالحين من ردَّ هذا التحريفَ.

أما التغيير: بالنسبة للحركات والنُّقط، والزيادة -زيادة كلمة أو حرف-، والنقص -نقص كلمة أو حرف-، والتبديل -أن تبدل كلمة بكلمة، وهو غير التغيير الذي سبق في أول الكلام-، محفوظ من هذا كله، حيث تكفَّل الله تعالى بحفظه فقال -عز وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وعليه فمَنِ ادَّعى أن شيئًا من القرآن مكتومٌ فهو كافر، مكذِّبٌ لله -عز وجل-؛ لأنه من لازِمِ ذَلِك أن يكون الله إما عاجزًا عن حفظه، وإما كاذبًا في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وَمَنْ وَصَف الله بالعجز أو بالكذب فهو كافرٌ حلال الدم والمال.

وقولنا: (إنه مكذبٌ لله ولرسوله)، أولا تكذيبه لله -عز وجل-؛ لأن ادعاءَه أنه قد زِيد فيه، أو نُقِص تكذيبٌ لمضمون قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وأما كونه مكذِّبًا للرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ فلأن المسلمين أجمعوا على أن محمدًا ﷺ بلَّغ القرآن كاملًا، ولم يشِذَّ عنه حرفًا، ولا كلمةً، ولا آيةً، وأنَّ هذا القرآنَ الذي بلَّغه محمدٌ -عليه الصلاة والسلام- هو هذا القرآنُ الذي بين أيدِينا، وأما الإجماعُ فظاهِرٌ.

* * *

«وقد حمى اللهُ -تعالى- هذا القرآنَ العظيمَ من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفَّل -عز وجل- بحفظِه، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ولذلك مضت القرونُ الكثيرةُ ولم يحاول أحدٌ من أعدائه أن يُغَيِّرَ فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يُبَدِّل، إلا هتك الله تعالى ستره، وفضح أمره».

الشــرح

الحمد لله، وهذا بخلاف الكتب السابقة التي صار فيها التحريفُ والتغيير والتبديل والكتمان، فجعلوا التوراةَ قراطيسَ يُبْدُونَها ويُخْفُون كثيرًا، لكن هذا القرآن -والحمدُ لله- محفوظٌ بحِفْظ الله -عز وجل-.

فالتغيير المعنويُّ يُيَسِّرُ اللهُ من عباده مَنْ يُبَيِّن بطلانه، وأما التغييرُ اللفظيُّ فليسَ لأحدٍ أن يُغيِّره تغييرًا لفظيًّا أبدًا، لكن قد تُوجَد محاولةٌ في التغييرِ المعنويِّ، وفعلًا وقعَتْ، لكن الله يُقيِّض له من يُبيِّن تحريفَه، ويُبَيِّن عَوارَه وعَيْبَه، وهذا معروفٌ من كتب التاريخ، وكلامِ العلماء -رحمهم الله تعالى-.

* * *

«وقد وصفه الله -تعالى- بأوصافٍ كثيرةٍ، تدُلُّ على عظمتِه، وبَرَكَتِه، وتأثيرِه، وشُمُولِه، وأنه حاكِمٌ على ما قبْلَه مِنَ الكتبِ.

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧]. ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]».

الشرح

فقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهذه السبع هي سورةُ الفاتحة، كما ثبت بذلك الحديث عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-(١)، فهي السبع المثاني؛ لأن آياتها سبعٌ، ففيها الخبر، وفيها الدعاء، وفيها التاريخ، وفيها تقسيم الناس بالهداية، ونَصَّ عليها؛ لأنَّها أمُّ القرآن، وأعظمُ سورةٍ في القرآن، وهي الفاتحة، وهي رقيةٌ من كل داء، لكن يُشترط أن يكون الراقي مؤمنًا موقنًا، والمرقيُّ عليه كذلك مؤمنًا موقنًا، ولا أحسنَ من الشرح الذي شرحه إيَّاها ابنُ القيم -رحمه الله- في أول «**مدارج السالكين**»(٢)، فإنَّه قد أتى من معانيها بالعجب العجاب الذي لا تجده في أي كتاب.

والقرآنُ العظيم وَصَفَه الله -عز وجل- بأنه عظيمٌ، ووَصَفَه بأنه مجيدٌ، وفي سورة البروج قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]، وفي كلتا السُّورَتَيْن بيانُ قهر الله -تعالى- لأعدائه وعقوبَتِهم، ووصَفَهُ بأنه مجيدٌ مناسب تمامًا لهذا؛ لأن المجدَ: هو العظمة والسُّلطانُ، فقال الله -تعالى-: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، وهذا يُدلُّ على عظمة هذا القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وسميت أم الكتاب، رقم (٤٤٧٤).

(٢) انظر مدارج السالكين (ص:٢١) وما بعدها.

فهل نفهم منه أن القرآنَ عظيمٌ، أو أنه مجيدٌ، أو نفهم منه شيئًا وراء ذلك، وهو أنَّ مَنْ تمسَّكَ به نال العظمةَ والمجدَ، وصار له السلطةُ على غيره؟

الجواب: الواقع يشهد لهذا؛ فالأمة الإسلامية لما كانت متمسكةً بهذا القرآن الكريم، كان لها السيطرةُ والهيمنة على كل الأمم، وصارت تفتح البُلْدَان بلدًا بلدًا.

* * *

«**وقال -تعالى-**: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥]، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]».

الشرح

هذه -أيضًا- آياتٌ تدُلُّ على عظمة القرآن.

فقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ فالقرآن مُبارَك، أي: مُبارَك في أثره، وتأثيره، وأجره، وثوابه.

أما أجرُه وثوابه: فإنَّ مَنْ قَرأ القرآنَ فله بكل حرف عشر حسنات [(١)].

أما تأثيرُه: فإنَّ الله بيَّنَ أنه لو أنزلَه على جَبَلٍ لرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، رقم (٢٩١٠).

وأما آثارُه: فما حصل للأمة الإسلاميةِ من النصر المبين، والفتح العزيز، الذي يشهد به كلُّ أحدٍ، ثُمَّ ما يحصل به من صلاح القلوبِ، وإقبال العبدِ على ربِّه، وتليين القلب بذكر الله، قال ابن عبد القويِّ -رحمه الله- [1]:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ الْقُرانِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قُلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ

وصدق -رحمه الله-؛ فالذي يقرأُ القرآنَ بحُضور قلبٍ وتدَبُّرٍ، لا شكَّ أنه يتأَثَّرُ به تأَثُّرًا عظيمًا.

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هو بيان الحكمة من ذلك، أن نتدبَّر آياتِه، لا أن نقرأَه بدون تدبُّرٍ، ولا تَفَهُّمٍ لمعناه؛ لأننا لو قرأناه هكذا لَمْ نستفد منه سوى ألفاظٍ نُردِّدُها، ونحن لا نعرف معناها، ولا نتدبَّرُها.

والحكمة الثانية: قال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فتدبُّرُ الآيات مطلَقٌ؛ لقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، والتذكُّر به خاصٌّ بأولي الألباب، أي: العقلاء؛ لأنه كَمْ من إنسان يعرف معنى القرآن، ويتدبر القرآن، ويستنتج منه الفوائد العظيمة، لكنه لا يتذَكَّر! ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة:٢٦٩].

والألباب: هي العقول، فَذَكَر اللهُ هذا القرآنَ العظيم، ووَصَفه بأنه مبارك، وبيَّنَ الحكمةَ من إنزاله، وهي أولا: تدبُّر الآيات، وثانيًا: التذكر.

وفي قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دليل على أن معانيَ آيات الصفات -بدون استثناء- معلومةٌ؛ لأنها من آياتِه، بل هي أجَلُّ آياتِ القرآن، إذ إنَّ فيها الخبرَ

---

(١) البيت موجود في الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٥٦٠) ، وهو غير موجود في (منظومة الآداب) للناظم بشرح السفاريني (طبعة دار الكتب العلمية ، وطبعة...)، فلعلها سقطت من الطابع أو من نسخة الشارح ، والله اعلم .

عن الله -عز وجل-، وأحكامه، وأفعاله، فهي معلومةٌ لنا، وبهذا نردُّ على من قال: إنَّ مذهب السلف هو التفويضُ، أي: تفويضُ المعنى، فإنَّ هذا قولٌ لا يصدُر إلا عن كاذبٍ على السلف، أو جاهلٍ بمذهبهم، وإلا فمَن عَلِمَ بمذهب السلف تبيَّن له أنهم يقولون بالمعنى، ويُعرِّفونه، وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- عن قول أهل التفويض أنه: «من شر أقوال أهل البدع والإلحاد»[1].

وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بيان أنَّه نزل للتذكُّر والاتِّعاظ، وكمْ من إنسانٍ يقرأ القرآنَ، ولكنه من أعداءِ القرآن! لأنه لمْ يتذكَّرْ به، ولم ينتَفِعْ به.

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، كتاب بمعنى مكتوب، أي: هو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوبٌ في المصاحف التي في أيدينا، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيْدِي السفرةِ الكرام البررة.

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ سبقَ الكلامُ عليها.

وقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا بمعنى قوله -تعالى-: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]؛ وذلك لأن الاتباعَ فرْعٌ عن معرفة المعنى.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ حذف المفعول، والتقدير: اتقوا مخالفتَه التي هي ضد

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

اتباعه، وهذا يشمل الأخذَ بجميع شرائع القرآن الكريم.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ «**لعل**» هنا للتعليل، وكلما جاءت «**لعل**» في القرآن فهي للتعليل، ولا يصحُّ أن تكون للتَّرجِّي؛ لأن التَّرجِّيَ إنما يكون في أمرٍ عَسِرٍ على المترجِّي، والله -سبحانه وتعالى- لا يعسر عليه شيءٌ، وهي كثيرةٌ في القرآن الكريم.

وقوله: ﴿تُرْحَمُونَ﴾ لم يُبَيِّن مَنِ الراحمُ؟ وإنما لم يُبيِّن، إما للعلم به فلا يحتاج إلى ذكره، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، ومعلومٌ أن الخالق هو الله -عز وجل-، فهنا ﴿تُرْحَمُونَ﴾ معلومٌ، فنقول: الراحمُ هو الله -عز وجل-، وهو الذي تنفع رحمتُه، أما رحمةُ مَن سواه فقد تنفع وقد لا تنفع.

وقد يقال: إنه حذفَ المفعولَ مِنْ أجل العموم؛ لأنه أحيانًا يُحذف المفعولُ لإفادة التعميم، واقرؤوا قولَ الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، يقول بعضُ المفسِّرين في هذه الآياتِ الثلاث: إنه حذف المفعولَ من أجل تناسُب الآيات، أي: رُؤوسِها، وأن الأصل: «**ألم يجدك يتيما فآواك، ووجدك ضالًا فهداك، ووجدك عائلًا فأغناك**»، ولكن الصوابَ أنَّه حذفَ المفعولَ لإفادةِ العُموم، فالرسولُ -عليه الصلاة والسلام- آواه الله وآوى به، فكان ﷺ ملجًا لأمَّتِه يلجَؤُون إليهِ، هاجروا من بلادِهم إلى المدينةِ؛ ليكونوا حول رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ فهداكَ وهدى بك أيضًا، كما قرر ذلك النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- للأنصار حين قال لهم:

«كُنْتُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي»(١).

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك، كما قال الرسولُ ﷺ للأنصارِ حين قال لهم: «كُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي»(٢).

فالحاصل: أن قولَه هنا ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ يحتمل أنه حذف الفاعل، إما للعلم به، أو لإفادة التعميم، ووجهُ التعميم أن يقال: مَنْ رَحِمَه اللهُ يَسَّر لَه مَنْ يرحمُه، فيكون المرحومُ مرحومًا مِن الله ومِنَ الخلقِ، وكم من إنسانٍ أنقذَه اللهُ مِنْ براثِنِ أعدائِه؛ لأنَّه مرحومٌ عنْدَ الله فرحمه العباد!

وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٧].

فقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير يعود على القرآن.

وقوله: ﴿لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات؛ لأنَّ قبلها قسمًا، وذلك في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧]، فالجملة مؤكَّدةٌ بثلاثة مؤكِّدات، الأول: القَسَم، والثَّاني: «إنَّ»، والثالث: «**اللام**».

لكن قد يقول قائل: إنها لم تؤكَّدْ بِقَسَمٍ؛ لأن الله يقول: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ «**فلا**» للنفي، فكيف تقولون: إنه إثباتُ قَسَمٍ؟

والجواب: إن «**لا**» هنا للتنبيه، وليست نافيةً، فمعنى «**لا**» أي: انْتَبِهْ أني

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١).

(٢) جزء من الحديث السابق.

أُقْسمُ بمواقع النجوم... إلخ، مثلها في قوله -تعالى-: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وفي قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد:١]، وفي قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [المعارج:٤٠]، وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة:٧٧] فمعنى «**الكريم**» أي: كثيرُ الخير، ولهذا يُقال للرجل البَذُول الذي يبذل مالَه: إنه كريمٌ، ويقال للبهيمة الحسناءِ التي تُدِرُّ وتلد: كريمةٌ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه- وقد بعثَه إلى اليمنِ: «**إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»[1].

فقوله: «**كرائم**»، يعني: أحاسنها وأطايبها، وكَرَمُ كلِّ شيء بحسبه، فهو كريمٌ يفتح المدارِكَ، ويُوسِّعُ العلومَ، كما أن الكريمَ يُعْطي المال، والبحر كريم لأن فيه مِن السمك والحيتان ما لا يحصى، فكذلك القرآن كريمٌ؛ فيه من المعاني ومن العلوم العظيمة ما لا يوجد في غيره.

انظر إلى قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، فكم تضمَّنَ قوله -تعالى-: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن كلِّ أنواع المركوبات، من حين نُزُوله إلى يوم القيامة، فالسيارات، والطائراتُ، والبواخرُ وغيرُها! كلُّها داخلة في قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وكذلك قولُه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]؛ فالقوة هنا الرمي، فكم تضمَّنَ قوله -تعالى-: ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ مِن كلِّ ما يمكن أن يُرْمَى به إلى يوم القيامة، مِن أنواع الأسلحةِ العظيمة الفتَّاكة!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

فالقرآن كريمٌ في ألفاظه، وفي معانيه، وفي آثاره، وفي كلِّ شيءٍ، هو قرآن كريمٌ كما وصفه الله -عز وجل-، ومِن كَرَمِه أنه يُلَيِّن القلبَ، إذا تابع الإنسانُ تلاوتَه لانَ قلبُه، ومن كَرَمِه أيضًا ما حصل للأمة الإسلامية بسبب التمسُّكِ به من الفتوحات العظيمة، والانتصارات الهائلة.

وقال -تعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]؛ أقوَم: اسم تفضيل، يعني: للخَصْلَةِ التي هي أقومُ، ولم يقل القَيِّمَة، بل قال: ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾.

إذن: فكُلُّ خُلُقٍ فاضل، فالقرآنُ يهدي إلى أعلاه، وكلُّ معاملةٍ حسَنَةٍ فالقرآن يهدي إلى أَحْسَنِها، وكلُّ عِبادَةٍ مستقيمةٍ فالقرآنُ يهدي إلى أقومِها، وهلمَّ جرًّا.

وقوله: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فيه إشارة إلى أن الدِّينَ الإسلاميَّ يبدأ بالأهم فالمهم، والأصلح فالصالح، ويدفع الأسوأَ بالسيِّءِ؛ لأن السَّيِّءَ بالنسبة للأسوإِ أقومُ؛ لكونِه أخفَّ؛ ولهذا فإنَّ العبارة تُشير إلى أن القرآنَ يهتَمُّ بالأهم فالمهم، والأحسن فالحَسَن، والأصلح فالصالح، وهلمَّ جرًّا، وعليه فإذا تعارض عليك، أو تعارض عندك عملان فلا تتوقَّفْ، فإذا كان أحدُهما أنفعَ من الآخر، فخذ بالأنفع ولا تنظر إلى الحاضرِ، بل انظر إلى نتيجة هذا الشيء في الحاضر والمستقبل؛ لأن الله يقول: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]، فالنظر إلى العاقبة أمر مهم.

إذن: من أوصاف القرآن أنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

«وقال -تعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وقال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٨]».

الشــرح

قال الله -تعالى-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، والجبل كما هو معلوم أصمُّ صُلْبٌ شديدٌ، ﴿لَّرَأَيْتَهُ﴾ أي: حين نزول القرآن عليه، ﴿خَاشِعًا﴾، أي: ذليلًا، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ أي: متفتِّتًا؛ من خشية الله، فـ﴿مِّنْ﴾ هنا للسببية، أي: بسبب خشية الله -عز وجل-، هذا وهو جبلٌ أصمُّ صُلْبٌ شديد، فكيف بالقلوب؟!

ولهذا إذا قرأت القرآن ولم تشعر بأن قلبك لانَ، فاعلم أنه أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة تلين وتخشع، والقلب الذي لا يلين ولا يخشع

بالقرآن أشدُّ قسوةً من الحجارة، فنسأل الله أن يُلَيِّن قُلوبَنا وقلوبَكم بذكره.

وقوله: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من خوفه، لكن الخشية خوفٌ مقرونٌ بِعلمٍ؛ لقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أفادنا الله -عز وجل- بأن هذا ضرب مثل، وأن الأمثال يضربها الله -تعالى- للناس: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتفكروا، وما أكثر الأمثال في القرآن الكريم!

وهنا فائدة أصولية: وهي: «**إنَّ كلَ مثَلٍ في القرآن فهو إثباتٌ للقياس**»؛ لأن المقصودَ به انتقالُ الذهنِ من هذا إلى هذا، ولهذا فأدلةُ القياس في القرآن كثيرةٌ جدًّا؛ لأنَّ الأمثالَ في القرآن كثيرة.

إذن: ففائدة وصف القرآن هنا، هو قوةُ تأثيرِ القرآنِ، وأنَّه لا بُدَّ أن يؤثِّر، لكن لما كان أكثر الناس اليوم يقرؤون القرآنَ بألسنتِهم، صار تأثيرُه لا يتجاوَزُ حناجرَهم، وإلاَّ لو قرؤُوه بقلوبهم وألسنتِهم، لكان له أثرٌ بالِغٌ.

فإن قال قائل: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] هل تدل أن الجبال لها فهم وإدراك؟

الجواب: نعم، ولهذا قال الرسول ﷺ عن جبل أحد: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(١)، ومما يُستَدل به على ذلك أيضا قوله -تعالى-: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب خرص الثمر، رقم (١٤٨٢)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ، رقم (١٣٦٥).

على أن التسبيح هنا عام في كل الأوقات، وليس مخصوصًا بوقتٍ معين.

يقول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤]، فقوله: ﴿مِنْهُم﴾، أي: من المنافقين من يقول: لا تستمعوا لهذا القرآن.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الاستفهام هنا للتحدي، وفائدة هذا الاستفهام، إما لكونهم لم ينتفعوا بهذه الآيات، فظنوا أن الناس كلهم مثلهم، وإما أنهم يُكابِرون ويُنْكِرون أن تكونَ الآياتُ أثَّرتْ عليهم، استكبارًا، وعنادًا، وجحودًا.

قال الله -تعالى- في الجواب: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، هذا قِسْم من الناس -وهم الذين آمنوا- زادتهم إيمانًا، وزيادة إيمانهم بأنه إذا أُنزِلت السورة بخبر صدقوه، وإذا أُنزِلت السورة بطلب قاموا به، تركًا للمنهيِّ عنه، وفعلًا للمأمور به، وهذا يزيد الإيمان، كلما ازداد الإنسان تصديقًا بآيات الله -عز وجل- ازداد إيمانُه، وكلما ازداد الإنسانُ عملًا ازداد إيمانُه، ولهذا كان من مذهبِ أهل السنة والجماعة، أن الإيمانَ يزيد بالطاعة، وينْقُص بالمعصيةِ.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يعني: يُبَشِّر بعضُهم بعضًا بما نزل، وبحُكْمِ ما نزل، يُبشِّر بعضُهم بعضًا بما وعد به القرآنُ من النَّصْر في الدنيا والفلاح في الآخرة؛ لأنه كلَّما نزلت آيةٌ من القرآن فهو دليلٌ على أنَّ الله أرادَ بالأمة خيرًا.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥]، فقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض: عِلَّةٌ تقتضي خروجَ البدن عن الاعتدال الطبيعيِّ، هذا هو الأصل، وهذا المرض -أعني: مرض القلب- في كلِّ موضعٍ بحسَبِهِ، ففي قوله -تعالى-: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فالمراد بالمرض هنا: مرضُ الشهوة.

وفي قوله هنا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المراد بالمرض هنا مرض الشك والجحود؛ لأنه في مقابل قوله -تعالى-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤]، والشيء يُعْرَف بمقابله، وهذه قاعدة التفسير التي ستأتينا إن شاء الله -تعالى-: «**أنه يُعرَف معنى الآيةِ بذِكْر المقابل**»، ومن أبرز مثالٍ لذلك قوله -تعالى-: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]، فمعنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ متفرِّقين أو فُرادَى، عرفنا هذا المعنى بمقابِله في قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾.

وقوله: ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والرجس هنا معنوي؛ لمجيئه للتوكيد، كقول الله -تعالى-: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، وهنا الرجس معنويٌّ.

إذنْ: لماذا قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾؟

الجواب: لأن النازلَ إنْ كان خبرًا كذَّبُوه، وإن كان طلبًا خالَفُوه، فهم يزيدون بالتكذيب رجسًا، ويزيدون بالمخالفةِ رجسًا.

وقوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ -نسأل الله العافية-، يعني: استمرَّ هذا الرجسُ في قلوبهم إلى أن ماتوا على الْكُفر، وفي هذه الآية تحذيرٌ عظيمٌ لمن ردَّ الشرعَ لأول مرة، أنه خطرٌ عليه أن يستمر معه هذا الردُّ حتى يموت على الكفر، فبمجرد ما يأتيك الخبرُ الصادقُ في حكم أو غيرِه فاقبله، وتهيأْ له، ولا تتَرَدَّدْ فيه؛ لأنك إن ترددت فيه فهو خطر عليك، قال الله -تعالى-: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، أي: لما كذبوا به صاروا في أمرٍ مريجٍ مختلط، لا يدرون عن شيء، وكذلك أيضًا قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة:٤٩].

فإذا قال قائل: كيف تكون السورة لقومٍ زيادةً في الإيمان، ولقومٍ زيادةً في الرجس، وهي سورةٌ واحدة؟

قلنا: لا غرابة، أرأيت الغذاءَ الجسديَّ يكون للسليم غذاءً وزيادةَ نموٍّ، ويكون للمريضِ علَّةً وزيادةَ مرضٍ، وأضرب لكم مثلًا بالتمر، فإنه إذا أكله السليمُ يزداد به نموًّا، وطاقةً حراريةً، ونشاطًا، وإذا أكله المريضُ بالسكريِّ يزداد مرضًا مع أنه واحدٌ، وهكذا أيضًا القرآن؛ تكون الآيةُ أو السورةُ لقومٍ زيادةً في الإيمان، ولقومٍ زيادةً في الكفر، ووجه كونه هنا مدحًا للقرآن؛ أن القرآنَ يزيد المؤمن إيمانًا، ويزيدُ الكافر كُفرًا، وهذا دليلٌ على قوةِ تأثيرِ القرآن.

فمن المعلوم أن نزولَ الآيات انقطع بعد موت الرسولِ ﷺ، لكن قد ينسى الإنسانُ الآيةَ ثم يقرؤُها أو تُقرَأُ عليه فيتذكَّر، وكأنها نزلت الآن، فأحيانًا نغفل عن معنى الآية، ثم إذا فتح الله علينا وعرفناها، كأنها نزلت الآن.

وانظر إلى ما حدث بعد موت الرسول ﷺ حين اجتمع الناس في المسجد، وقام من نراه أشجع هذه الأمة بعد نبيها وبعد أبي بكر -رضي الله عنه- عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، قام يقول للناس: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وإنه صَعِق، وسيُبْعث فيُقَطِّع أيديَ أقوامٍ وأرجُلَهم، يقول هكذا، ولا شك أنه قرأ قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، لكنَّه من الذهول غفل عنها، فلما جاء المطمَئِنُّ أبو بكر -رضي الله عنه- وقرأها، قال عمر: «حتى عُقِرْتُ فما تقلني رجلاي»[1]، وكأن الآية نزلت الآن؛ لأن الناسَ من شدة ما أصابهم من الهول غفلوا، حينئذٍ يجد الإنسانُ لذةً في هذه الآية التي فَتح الله عليه بها، وكأنما نزلت الآن.

وفي هذه الآية فائدة، وهي: أنه كلما أتتك «ما» بعد «إذا» فهي زائدةٌ، ولهذا يقول النَّاظم:

يا طالبًا خذ فائدة بعد (إذا) (ما) زائدة

ولها أمثلة منها: قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، أي: إذا غضبوا، وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ﴾ [فصلت:٢٠]، أي: حتى إذا جاءوها، وهلمَّ جرًّا.

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، هذا أيضًا من تأثير القرآن، أنه إنذارٌ لمن بلغه، فكل إنسان قرأ القرآن يعرف معناه، فلا بد أن يتأثر به، حتى لو كان كافرًا، وكانت قريش حينما كان الرسول يقرأ القرآن، يجتمع عليه النساء والصبيان، بل وكبراؤهم،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٤).

يستمعون إليه؛ لأنه أثَّر فيهم، فجعلوا يأتون بالخفية يستمعون القرآن مِنْ فِيْ الرسول ﷺ، فالقرآن مؤثِّرٌ، وقد قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ولهذا قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ يعني: ومن بلغه من الناس، فقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ أيها المخاطبون، وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: من غيركم، وهذا يدل على قوة تأثير القرآن، وفي هذه الآية يَحْسُن أن نتكلم على قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾، فقد استدل به بعض العلماء على أن من بلغه القرآنُ فقد قامت عليه الحجة، وإن لم يعرف معنى القرآن، ولكن هذا القول ضعيف؛ لأن من لا يعرف معناه لا يأتي بمضمونه، والله -تعالى- قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال الله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، لكن إذا قيل له: (هذا كلام الله الواجب اتباعه) فقد بلغته الحجة، وإن لم يفهم المعنى على سبيل التفصيل؛ لأنه إذا عرف أن هذا كلام الله وهو وحي، وأنه يجب اتباعه فقد بلغه، ولا يقال: إنه لا بد من التفصيل؛ لأن التفصيلَ قد يكون صعبًا.

وهنا مسألة: هل الدِّين الإسلامي -الآن- بلغ الكفار على وجهٍ غير مشوَّشٍ أو لا؟

الجواب: لا، ولما ظهرت الجماعات الذين يتصرَّفون بغير حكمةٍ، ازداد تشويه الإسلام في نظر الغربيين وغير الغربيين، وأعني بهذه الجماعات أولئك الذين يُلْقُون المتفجِّرات في صفوف الناس؛ زعمًا منهم أن هذا من الجهاد في سبيل الله، والحقيقةُ أنهم أساؤوا إلى الإسلامِ أكثرَ بكثيرٍ مما أحسنوه.

وماذا أنتج هؤلاء؟ هل أقبل الكفَّارُ على الإسلام، أو ازدادوا نفرةً منه؟

الجواب: ازدادوا نفرة، حتى يكاد الإنسان المسلمُ يغطي وجهه لئلا يُنسب إلى هذه الطائفةِ المرْجِفة المرُوِّعَة، والإسلامُ بريءٌ منهم، حتى بعد أن فُرض الجهاد في صدر الإسلام ما كان الصحابةُ -رضي الله عنهم- يذهبون إلى مجتمعِ الكفَّار ويقتلونهم إلا بجهادٍ له رايةٌ من وليٍّ قادرٍ على الجهاد، أما هذا الإرهابُ فهو -والله- نقصٌ على المسلمين؛ لأننا نجد أنه لا يوجد نتائج، بل هو بالعكس فيه تشويهٌ للسمعة، ولو أننا سلكنا الحكمة، فاتقينا اللهَ في أنفسنا، وأصلحنا أنفسنا أولًا، ثم حاولْنا إصلاحَ غيرِنا بالطرق الشرعية لكانت هناك نتيجةٌ طيبة.

قال -تعالى-: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

فقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فيما يريدون منك، وما يريد الكافر من الرسول ﷺ يتضح من قوله -تعالى-: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: اسكت عنا نسكت عنك، هذا الذي يريدون، كقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء:٨٩]، لكن يقول الله له: «لا تطعهم».

وقوله: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن جهادًا كبيرًا، وهل نجاهدهم بآيات القرآن، أو بأحكام القرآن، أو بهما جميعًا؟ الجواب: بهما جميعًا، فجاهدهم بآياته، أي: اتلُ عليهم القرآن، ضيق عليهم؛ لأنهم ضاقوا ذرعًا بالرسول -عليه الصلاة والسلام- لما كان يقرأ ويجتمع إليه الناس، ضاقوا به ذرعًا حتى قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]،

فهذا جهاد يُضيِّق عليهم، و﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، أي: بأحكامه وبحِكَمه، واتبع ما جاء في القرآن من قتالهم وجهادهم حتى تكون كلمة الله هي العليا.

وقوله: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: لا تتأنَّى وتمد إليهم يد الضعف، بل يد القوة؛ لأنهم هم يريدون أن يمدوا إليكم يد القوة، فيجب أن تمدوا أنتم لهم يد القوة، ولكن الحكمة تقتضي أن نتعامل مع الزمن، فإذا كان بنا قوة جاهدناهم، وإلا عاهدناهم إلى أن يفتح الله علينا بالقوة والعزة.

وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، أي: تبيانًا لكل شيء، وهدىً لكل الناس، قال الله -تعالى-: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فهو هدىً لجميع الخلق، لكنه هداية دلالة.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ هذا خاصٌّ بالمسلمين، فالرحمة خاصَّةٌ بهم، وكذلك بشرى لهم إذا تمسكوا به.

والشاهد قوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية.

وقال -تعالى-: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٨].

فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن بالحق، أي: متلبسًا بالحق، ونازلًا بالحق، فنزوله حق، وما جاء به حق، فـ«**الباء**» للملابسة، وكذلك أيضًا للتعدية، فهو نازل نزول حق، ونازل بالحق، يعني: أتى بالحق،

فأخباره صدق، وأحكامه عدل، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وكيفية تصديق القرآن لما بين يديه من الكتاب من وجهين:

الوجه الأول: أن الكتب السابقة ذكرت منه شيئًا فنزل مِصْداقًا لها.

الوجه الثاني: أنه يُصدِّقُها، ويقول: إنها حقٌّ وصدقٌ، ولهذا يجب علينا أن نؤمن بالكتب السابقة، فقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مُصَدِّقٌ لما أخبرت به، ومصدِّقٌ لها بالحق.

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ الهيمنة هي السيطرة والسلطة، يعني: أن القرآنَ ناسخٌ لما سبقه من الكتب.

وقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا ترتيب على ما سبق، فقوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ فـ«**الفاء**» هنا للسببية، أي: فبما أنه مهيمن احكم بينهم بما أنزل الله.

فإن قال قائل: بعض الناس إذا نصحته في الدُّخان قال: ليس حرامًا؛ لأن القرآن لم يحرم هذا، وإذا أوردت عليه آيةَ الأعرافِ، قال: القرآن لم يحرم هذا؟

فالجواب: إن القرآن قد يشير إلى أصولٍ وقواعدَ تتفرَّعُ منه الجزئيات، فقول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] يفيد أن كل شيء يؤدي إلى ضررٍ في البدن، فإنه حرام، والدخان لا يشكل على أحدٍ الآن أنه ضارٌّ، ولهذا نجد الأمم الراقية في طلب الدنيا والمتعة فيها تحرمه، خصوصًا في